شرح

تجريد التوحيد المفيد

تأليف

الإمام العلّامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي

(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ)

لفضيلة الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ:

سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

٠٠٢٠١٠٣٠٢٦٩١٥٩

الدَرْسِ (٣)

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، ونشهد ألا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إله الأولين والآخرين، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث رحمةً للعالمين، أشرف الأنبياء والمرسلين، وسيدنا وسيد ولد آدم أَجْمَعِيْنَ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا دائمًا إِلَىٰ يوم الدين، ورضي الله عن آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الخيار الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان واستقام إِلَىٰ يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ؛

فمعاشر الفضلاء؛ هنيئًا لكم بما أنعم الله به عليكم فكنتم في مسجد رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذَا المسجد الَّذِي تشتاق إليه أفئدة المؤمنين، وكم من مؤمن يتمنى أن يصل إليه لكن لم يُكتب له ذلك، فعلينا أن نشكر الله عَلَىٰ هذِه النعمة، وأن نتأدب في مسجد رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يعظم أدبنا مع رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مدينته وفي مسجده، وأن نحذر حذرًا شديدًا من الإحداث والبدع في مسجد رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي مدينته، فإن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «المَدِينَةُ حَرَمٌ ما بيْنَ عَيْرٍ إلىٰ ثَوْرٍ، فمَن أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَىٰ مُحْدِثًا، فَعليه لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللهُ منه يومَ القِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا».

هنيئًا لكم بأن أديتم صلاة الفجر في جماعة فكنتم في ذمة الله، هنيئًا لكم بأن أديتم صلاة الفجر في جماعة في مسجد رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصلاة في مسجد رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، هنيئًا لكم وقد أديتم هذه الفريضة العظيمة ثُمَّ انقلبتم إِلَىٰ حلقة من حِلق العلم من رياض الجنة في مسجد رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجلستم وثنيتم الركب في مسجد رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «من غدا إلىٰ مسجدٍ لا يريدُ إلا أن يتعلَّمَ خيرًا أو يُعلِّمَه، كان له كأجرِ حاجٍّ، تامًّا حجَّتُه»، «من دخلَ مسجِدَنا هذا ليتعلَّمَ خيرًا، أو ليعلِّمَهُ، كانَ كالمُجاهدِ في سَبيلِ اللهِ»، فنحمد الله الَّذِي أنعم وتكرم ويسر، ونسأله سُبْحَانَهُ أن يتقبل.

معاشر الفضلاء، لا زال درسنا في فجر السبت في شرح كتاب عظيم مفيد، هو كتاب (**تجريد التوحيد المفيد**) لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المصري مولدًا ونشأة ووفاة، الحنفي ثُمَّ الشافعي مذهبًا، الَّذِي ولد في أوائل النصف الثاني من القرن الثَّامِن، وتوفي في أواخر النصف الأول من القرن التاسع، حيث سطر هٰذَا العالم من علماء المسلمين هٰذَا الكتاب في توحيد رب العالمين، في توحيد الألوهية، في حق ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ عبيده، في أعظم أمر في القرآن وأول مأمور به في القرآن، في الأمر الذي دعا إليه النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أول لحظة في بعثته إلى أن مات صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما خلت بعثة رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تقرير التوحيد والأمر بالتوحيد.

ولا زلنا مع جملة جميلة جليلة ابتدأ بها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كتابه، وهي قوله: "اعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو رب كل شيء وإلهه ومالكه"، وقد ذكرها المصنف لأنها سر التوحيد، فمن ضبطها انضبط له التوحيد، ومن عرف ما فيها وعرف معانيها واعتقدها اعتقادًا جازمًا صفى له التوحيد، ومن اختلت عنده هٰذِه الجملة اختل توحيده.

وبدأ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يشرح هذه الجملة، فبدأ ببيان معنى اسم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قرأنا ذلك وشرحناه، فنواصل قراءة ما سطره هٰذَا الإمام ونعلق عليه، فيتفضل الابن نور الدين وَفَّقَهُ اللهُ والسامعين يقرأ لنا من حيث وقفنا.

(المتن)

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، أَمَّا بَعْدُ؛ فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللسامعين.

قال العلامة أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في كتابه (تجريد التوحيد المفيد) : والإلهية كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا.

(الشرح)

هنا يتكلم المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عن اسم ربنا "الإله" واسم ربنا "الله"، ويشير إِلَىٰ أن اسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُشتق كما عليه جمع من المحققين، وأنه مشتق من الألوهية وأصله "الإله"، كما نقله سيبويه عن الخليل، وقاله الكسائي والفلسفة والفراء.

وأُدخلت الألف واللام بدلًا من الهمزة للتعظيم "الإله"، الهمزة بعد اللام أُدخلت هنا، أُدخل اللام المشدد للتعظيم فصار "الله"، واختار سيبويه أن أصله "لاه"، فدخلت الألف واللام للتعظيم.

الأول: أن أصله "الإله"، ثُمَّ أُدخلت اللام بدلًا من الهمزة فصار "الله" تعظيمًا.

وَالثَّانِي: أن أصله "لاه"، فأُدخلت الألف واللام فصار "الله" للتعظيم.

يقول السعدي رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الله هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية عَلَىٰ خلقه أَجْمَعِيْنَ.

وقال شيخنا الشيخ صالح الفوزان حَفِظَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إنه مشتق من "الوله" وهو المحبة، أي هٰذَا من مشتقاته "الوله" وهو المحبة.

وقيل: مشتق من قولهم "أله الفصيل"، والفصيل هو ولد الناقة، "أله الفصيل إِذَا أُولع بأمه"، أي: اشتد حبه لأمه فأولع بها.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المألوه المعبود؛ لأن المألوه هو المعبود، والعبادة لا بد فيها من كمال المحبة والخوف والرجاء، فالعبد يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنه المستحق للعبادة دون غيره، فلا يستحق شيئًا من العبادة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعبد ربه لأنه المحبوب الذي له المحبة الكاملة الَّتِي تتبعها كل محبة، فكل مخلوق يُشرع حبه إنما يحب في الله لا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا تُقدم محبة مخلوق على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَهٰذِه المحبة التي يعبد العبد ربه من أجلها معها خضوع وذُل وانقياد، إذًا محبة الله الَّتِي ينفرد بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي المحبة الكاملة، والمحبة المقدمة، والمحبة الَّتِي معها ذُل وخضوع وانقياد.

هٰذِه هي المحبة الَّتِي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يرجو ثوابه ويرجو جنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعبد الله؛ لأنه يخاف عقابه ويخاف ناره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء: ٥٧]، فوجدت هذه الأركان القلبية الثلاثة في هٰذِه الآية، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ هٰذِه المحبة، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ هٰذَا الرجاء، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ هٰذَا الخوف، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الإله المستحق للعبادة؛ لأنه رب العالمين.

وكما تقدم معنا: من آمن بربوبية الله إيمانًا صحيحًا يستلزم ذلك يقينًا أن يؤمن بألوهية الله، وأنه سُبْحَانَهُ المستحق للعبادة، وهو سُبْحَانَهُ المحبوب عَلَىٰ الوصف الَّذِي ذكرنا؛ لكمال ربوبيته، وكمال إنعامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكمال أسمائه وصفاته.

وقال بعض العلماء: إن الإله يقتضي أن يكون محبوبًا كما قدمنا؛ لأن مادته من "الوله" وهو الحب، فهو المحبوب بكمال المحبة المُفرد بالعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ويُفردونه بالحب والخوف والرجاء، والإخبات والتوبة، والنذر والطاعة، والطلب والتوكل، ونحو هٰذِه الأشياء.

(الشرح)

أي يُفرده العباد بأفعالهم الَّتِي يفعلونها عَلَىٰ وجه التعبد والتقرب، سواءً كانت أفعالًا قلبية أو بدنية أو مالية أو لسانية، فكل عباداتهم لله لا يُصرف منها شيء لغير الله، كلها خالصة لله، فالحب والخوف والرجاء عبادات قلبية وهي أركان العبادة القلبية، والإخبات والتوبة والطاعة عبادات بدنية، والنذر عبادة بدنية أو عبادة مالية؛ لأن من نذر طاعة الله إن كانت فعلًا فهذه عبادة بدنية، نذر أن يصلي، نذر أن يصوم، هٰذِه عبادة بدنية، نذر أن يتصدق، نذر أن يذبح هٰذِه عبادة مالية، نذر أن يذبح هٰذِه عبادة مالية وبدنية، والطلب الَّذِي هو الْدُّعَاء هٰذِه عبادة لسانية مع ما يقر في القلب وَالتَّوَكُّل هٰذَا من أجل العبادات القلبية.

الشاهد: أن من آمن بربوبية الله يستلزم ذلك يقينًا أن يؤمن بألوهية الله، وأن يكون هِجيره وديدنه وشأنه، دائمًا أن يقول مصدقًا ذلك بفعله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فلا معبود له إلا الله، الله معبوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يصرف شيئًا من العبادة لمخلوق مهما عظم فضله، لا يصرف شيئًا من العبادة لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا لولي صالح، وإنما عبادته لله لأنه يوقن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذو الألوهية، وأن كل مخلوق مهما عظم فضله فما هو إلا عبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالملائكة كلهم عِبادٌ يعبدون ولا يعبدون، والرُسل كلهم عليهم السلام عباد يعبدون ولا يُعبدون،

والأولياء الصالحون كلهم إنما شرفوا وفضلوا وقُدموا بعبادتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعبدون ولا يُعبدون.

فيُفرد الله بعبادته، سواء العبادات الَّتِي في قلبه، أو العبادات الَّتِي تكون من بدنه، أو العبادات الَّتِي تكون في ماله، أو العبادات الَّتِي تكون في لسانه وبلسانه.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن التوحيد حقيقته أن ترىٰ الأمور كلها من الله تَعَالَىٰ، رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط، فلا ترىٰ الخير والشر إلا منه تَعَالَىٰ.

(الشرح)

حقيقة التوحيد وحقيقة الإيمان أن تعرف ربوبية الله، وتوقن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الرب بالمعاني الشرعية الصحيحة، وتُفرد الله وتوحده في ربوبيته، وأن تُوقن أن الأمر كله لله، فلا نافع إلا الله ولن يستطيع جميع المخلوقين أن ينفعوك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الضار هو الله ولن يستطيع جميع المخلوقين أن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، وأن مشيئة الله نافذة، وأن كل مشيئة إنما هي تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن تعلم أنه لا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطي لما منع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإن وقر ذلك في القلب؛ تعلق القلب بالله واضمحل ما دونه في القلب، فلا تعلق بالأسباب، وإنما تعلق القلب بالله، وإنما تُفعل الأسباب عَلَىٰ أنها أسباب، جعلها الله طريقًا لمسبباتها، وإلا فلا تأثير لها دون أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذَا معنى قول الْمُصَنِّف: (رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط)، لا يعني أن العبد لا يفعل الأسباب، ولكنه يعني أن قلبه إنما يتعلق بالله، لا يتعلق بالأسباب، يفعل الأسباب لأنه علم أن ربه أنعم فجعلها أسبابًا لمسبباتها، ولا يُعلق قلبه بها، يتناول الدواء لكن لا يُعلق قلبه بالدواء وإنما قلبه مُعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا الأمر فيه حقيقة التوحيد وحقيقة الإيمان، وَهٰذَا إِذَا وقر في القلب أثمر إخلاص التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هٰذَا بالنسبة للوسائل.

أما الوسائط بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين الخلق: فهناك وسائط من أثبتها كفر، وهناك وسائط من نفاها كفر، الوسائط بين الحق الذي هو الله والخلق، منها وسائط من أثبتها كفر بإجماع السَلَف، وهناك وسائط من نفاها كفر.

أما الوسائط الَّتِي من أثبتها كفر: فهي الوسائط الَّتِي تُدعى، ويُتوكل عليها، ويُعلق القلب بها، ويُتقرب إليها، ويُقال إنها تقربنا إِلَىٰ الله زلفى، ويقال: "هؤلاء شفعاؤنا عند الله"، يكون هؤلاء عند أولئك الَّذِينَ يتقربون إليهم أقرب إِلَىٰ قلوبهم من الله.

فإذا نزلت بهم النازلة لا تفزع قلوبهم إلى الله وإنما يفزعون إِلَىٰ تلك الوسائط، وتكون تلك الوسائط كالحُجّاب بين ملوك الدنيا والرعية، يرفعون إِلَىٰ الملوك حوائج الخلق لقربهم من الملوك، وَهٰذَا شرك في الألوهية، وقدح في الربوبية، وتنقص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتشبيهه ببعض خلقه، وردٌّ لقول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وأما الوسائط الَّتِي من نفاها كفر: فهي ما جعله الله بينه وبين عباده في تبليغ الرسالة وبيان الدين، وهم الملائكة والرُسل من البشر عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الَّذِينَ اختارهم الله عَزَّ وَجَلَّ لرسالته، فهم يبلغون شرع الله لعباده، فمن نفى هذه الوسائط وأنكرها كفر بالإجماع.

وهناك وسائط مشروعة وهي من التوحيد: وهو التوسل إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ بالعمل الصالح وبدعاء الصالحين الأحياء، أن تتوسل إِلَىٰ ربك بعملك الصالح غير ممتن به، فتدعو الله متوسلًا بعملك الصالح، هٰذَا مشروع ومن التوحيد.

أن تطلب من رجل صالح حي أن يدعو الله لك وأنت تعلم أنه مخلوق مثلك يعبد الله لا يُعبد ولا يُدعى من دون الله.

أن تطلب من امرأة صالحة حية أن تدعو لك، وأنت تعلم أنها عابدة لله، لا تُعبد من دون الله ولا تُدعى من دون الله، هٰذَا مشروع ومن التوحيد.

فإذا عرفت الوسائط مُثبتها ومنفيها ومشروعها؛ استقر لك التوحيد واندفعت عنك الشبهات.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهٰذَا المقام يُثمر التوكل وترك شكاية الخلق وترك لومهم، والرضا عن الله تَعَالَىٰ والتسليم لحكمه.

(الشرح)

هٰذَا الَّذِي ذكرنا أنه حقيقة التوحيد وحقيقة الإيمان، إِذَا وقر في القلب ماذا يثمر؟ ما ثماره؟ يُثمر إخلاص التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يُستعان إلا به، ولا يُتوكل إلا عليه سُبْحَانَهُ، ولا يُطلب الخير إلا منه، كما قَالَ ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧-٨].

وَهٰذَا يقود العبد إلى عدم الالتفات إِلَىٰ المخلوقين فيما يصيب الإنسان ويفوته مما يريد؛ لأن ذلك بقدر الله، فما كان ذلك ليصيبه حَتَّىٰ لو أراد المخلوقون جميعًا أن يصيبه ذلك، وبالتالي لا يشكوهم ولا يلومهم عَلَىٰ فوات ذلك الخير أو نزول ذلك الضر أو المصيبة، وإذا شكاهم فإنما يشكوهم إلى ربهم، ويشكوهم ويلومهم عَلَىٰ تفريطهم وعَلَىٰ تقصيرهم وعَلَىٰ اعتدائهم، لا يشكوهم لفوات الخير فإن ذلك بأمر الله، ولا يلومهم عَلَىٰ فوات الخير.

لكن إن شكاهم فإنما يشكوهم إِلَىٰ ربهم، ويشكوهم ويلومهم لتقصيرهم واعتدائهم وتفريطهم، إِذَا شكاهم إنما يشكوهم إِلَىٰ ربهم أو يشكوهم إِلَىٰ من يملك عقابهم أو تأديبهم، لا لفوات الخير ولا لحصول الضر وإنما كما قلنا لتقصيرهم وتفريطهم واعتدائهم.

إِذًا قول المصنف: (إنه لا يشكو الخلق ولا يلومهم)، أي: عَلَىٰ فوات الخير الَّذِي يريد أو عَلَىٰ نزول المصيبة.

بعض الناس إِذَا فاته خير قَالَ: "من الذي أصابني بالعين؟ من الذي حسدني؟"، هٰذَا التفات للخلق، وَهٰذِه أسباب لا شك ثابتة، لكن لا تُعلق بها الأمور هكذا، لا يشكوهم ولا يلومهم عَلَىٰ فوات الخير أو نزول الضر.

لكن هٰذَا لا يعني أنه لا يشكوهم إِذَا فرطوا، إِذَا قصروا، إِذَا اعتدوا، بل يشكوهم إِلَىٰ الله، ويشكوهم إِلَىٰ من يملك أن يعاقبهم أو يؤدبهم أو يمنع تقصيرهم أو اعتداءهم أو ظلمهم أو خطأهم.

فيُسلم لربه ولا يتشكى ولا يتسخط ولا يتجزع، وَهٰذَا من الصبر الواجب، وقد يقوى ما في القلب مما ذكرناه حَتَّىٰ يرضى العبد بفوات الخير ونزول الضر، وَهٰذَا مُستحب من العبد، وقد يقوى ما في القلب مما ذكرناه حَتَّىٰ يبلغ العبد درجة الشكر لله عند فوات الخير أو نزول الضر؛ لأنه يرى ما في المحن من المنح وما في المنع من العطايا، هٰذَا إِذَا فاته خير أو نزل به ضر.

أما إذا أصابه خير فإنه يشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن شكره لله أن يشكر المخلوق الَّذِي جعله الله سببًا لحصول هٰذَا الخير.

إِذَا انتبهوا: مقام فوات الخير ونزول الضر أو البلاء أو المصيبة مقام، ومقام إصابة الخير ونزول النعمة مقام، وَهٰذَا إنما يكون في قلب العبد ثمرة لما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ من حقيقة التوحيد.

قبل أن نغادر هٰذَا، أُشير إِلَىٰ أن قوله: (فلا ترىٰ الخير والشر إلا منه تَعَالَىٰ)، نعم الشر من الله وليس إِلَىٰ الله؛ لأن أفعال الله كلها خير من جهة فعل الله؛ لأنها مبنية عَلَىٰ الحكمة، ففيها تمام الحكمة، وفيها العدل، وبُنيت عَلَىٰ العلم المحيط، إِذًا الشر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وليس إِلَىٰ الله.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تَعَالَىٰ لعباده، والتألُّه من عباده له سُبْحَانَهُ، كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه عَزَّ وَجَلَّ.

(الشرح)

أفعال من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده تفضلًا من الكريم عليهم، وَهٰذَا توحيد الربوبية، وأفعال من العباد تعبدًا لله حقًا واجبًا عليهم، ووصلةٌ بين الله وبين عباده هي الرحمة.

وقد تقدم كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الارتباط بين اسم الرب والله والمالك والرحمن، فأفعال الله سُبْحَانَهُ نازلة للعباد واصلة شاملة، وَهٰذِه الربوبية، وَهٰذَا يستلزم أن تكون أفعالهم الصاعدة إِلَىٰ ربهم التوحيد، وأن تكون عباداتهم كلها صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها، قلبيها ولسانيها، وما بالجوارح منها وماليها عَلَىٰ التوحيد الخالص.

والصلة بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده الرحمة الواصلة العامة، ويمتاز الموحدون بالرحمة الخاصة، هٰذِه الرحمة سبب واصل بين الله وبين عباده في الدنيا والآخرة، فبرحمته سُبْحَانَهُ أرسل إِلَىٰ عباده الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وهيأ لهم السبل، وهيأ لهم حياتهم في الدنيا، وهداهم إِلَىٰ صراطه المستقيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالرحمة الخاصة هدى من شاء إِلَىٰ صراطه المستقيم.

تذكروا ما قلنا يا إخوة: فرق بين الهداية إِلَىٰ السراط المستقيم الَّتِي هي البيان، وهداية السراط المستقيم الَّتِي هي البيان والتوفيق والتثبيت والقبول، فبالرحمة الخاصة هدى من شاء من عباده صراطه المستقيم وثبته عليه وأماته عليه حَتَّىٰ يدخل بفضل ربه الجَنَّة، وَهٰذِه الرحمات العظيمة للعباد في الدنيا منذ أهبط الله آدم عَلَيْهِ السَّلَام إِلَىٰ الأرض، إِلَىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها ما هي إلا جزء يسير من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ للموحدين يوم القيامة، فما أعظم التوحيد!، الموحدون مرحومون في الدنيا بالرحمة العامة والرحمة الخاصة، ومرحومون في الآخرة بعظيم الرحمات، مختصون بها دون غيرهم.

فهذا إشارة من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ الارتباط بين الربوبية والألوهية ورحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد ذكرت لكم أن بين أنواع التوحيد الثلاثة الَّتِي دل الاستقراء التام للنصوص عليها، ولا يخرج شيء عنها، الَّتِي هي توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، أن بينها علاقة.

العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية الاستلزام، فإن من وحّد في الربوبية حقًا وحّد في الألوهية صدقًا لزوما، هٰذَا مستلزم، والعلاقة بين توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية والألوهية علاقة شمول، فكل توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية موجود ومشمول في توحيد الله بأسمائه وصفاته.

(المتن)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدرًا توحيد الله تَعَالَىٰ.

(الشرح)

والله إن أجمل ما طلعت عليه الشمس وما غربت عليه الشمس التوحيد، وبالتوحيد تجمل كل عبادة، طلب العلم لا يكون نعيمًا للدنيا وجنة في الدنيا ولذة في الدنيا إلا مع التوحيد، طلب العلم من

غير توحيد وبال عَلَىٰ أصحابه، شقاء لأصحابه، التوحيد أجمل ما في الدنيا ومُجَمِّل لما في الدنيا، عباداتك والله لا تجمل إلا بالتوحيد، ولا يصيبك أثرها الَّذِي جعله الله إلا بالتوحيد.

التوحيد أعظم الأعمال، التوحيد أنفس الأعمال، التوحيد أشرف الأعمال، التوحيد أجل الأعمال قدرًا، وكل عمل صالح غير التوحيد تابع للتوحيد، ولا بد أن يكون فيه توحيد، الأعمال الصالحة كلها تابعة للتوحيد، إنما يُدعى إِلَىٰ الأعمال الصالحة من وحّد الله، كما في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وكل عمل صالح لا يكون صالحًا إلا إِذَا كان فيه التوحيد مع الاتباع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يقبل الله العمل إلا من موحد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، هٰذَا اتفق عليه جميع الأنبياء من أشرك لا يقبل عمله، بل عمله حابط مردود عليه، وَقَالَ سُبْحَانَهُ عن المشركين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، انظر "من عملٍ" نكِرة مسبوقة بـ "من" تعم كل عمل، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٣-٥٤]، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤]، الَّتِي هي عمل طيب إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله.

وروى البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَن مَاتَ وهْوَ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»، وروى مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَن لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ به شيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَن لَقِيَهُ يُشْرِكُ به دَخَلَ النَّارَ»، مهما عمل من عمل.

ولذلك المتقرر عند أهل السُّنَّة: أن الفاسق مع التوحيد خير من الصالح مع غير التوحيد ومع عدم التوحيد، الفاسق الموحد خير ممن يظهر للناس أنه صالح لكنه لا يوحد الله كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إِذًا بلا شك أن أنفس الأعمال وأجلها قدرًا توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثُمَّ سيدخل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بعد أن قدم بهذه المقدمة التي تجعلك تعلم وتعتقد أن التوحيد كله هو خير الأعمال وأشرفها سيدخل إِلَىٰ نقل من كتاب (**إحياء علوم الدين**) للغزالي، وَهٰذَا

النقل وإن كانت ألفاظه ليست ألفاظ السَلَف إِلَّا أن معناه صحيح، وما قد يُتوهم فيه مدفوع، وَهٰذَا ذكاء من المقريزي؛ لأنه نقل عن الغزالي الَّذِي يعظمه المخالفون، نقل هٰذَا الكلام وفيه جمل أَوْ كلمات ليس من كلام السَلَف، وإن أُطلقت قد تُفهم شيء غير لائق، لكنه رَحِمَهُ اللَّهُ من ذكائه قبل أن ينقل النقل قدم لك جمله تدفع هٰذَا الفهم: "اعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدرًا توحيد الله تَعَالَىٰ"، إذًا ما سيأتي عن التوحيد داخل في هٰذِه الجملة، سيأتي أنه سيذكر أن للتوحيد قشرًا، والقشر في مفهوم الناس هو الشيء غير المهم، فقد يظن ظان أنه يعني يُفهم من هٰذَا أن بعض التوحيد غير مهم، المصنف هنا دفع هٰذَا الوهم قبل أن يشرع وقال لك: اعلم ولا يخطرن في بالك إلا هٰذَا، أن أنفس الأعمال وأجلها قدرًا التوحيد فكل التوحيد هو أنفس الأعمال، غير أن التوحيد مراتب.

هٰذِه مقدمة مشوقة أقدمها بين يدي هٰذَا الكلام حيث سنبدأ به إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ درسنا في الأسبوع القادم، نقرأ كلام المصنف، نبين المراد به، ونعلق عليه إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما جمعنا في مسجد نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إخوانًا في طلب العلم متجاورين، أسأله أن يجمعنا ووالدينا وأهلينا وذرياتنا وأحبابنا ومن دعا لنا ومن دعونا له في الفردوس الأعلى أجمعين.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ ألا يحرم منا أحدًا، اللّٰهم يا ربنا من علمته منا عَلَىٰ طاعة فثبته عليها وتقبلها منه وزده من الخير يا رب العالمين، اللّٰهم إنك أعلم بنا وبذنوبنا، اللّٰهم من علمته منا مقيمًا عَلَىٰ ذنب اللّٰهم فكرهه في ذنبه، اللّٰهم فكرهه في ذنبه، اللّٰهم فكرهه في ذنبه، وارزقه توبة صادقة منه يا رب العالمين.

اللّٰهم يا ربنا اجعل ما بقي من أيامنا خيرًا لنا، اجعله مزيدًا في قربك، اجعله مزيدًا في تقربنا إليك يا رب العالمين، واغفر لنا ما مضى من ذنوبنا وثبتنا عَلَىٰ الخير يا ربنا حَتَّىٰ نلقاك يا رب العالمين، اللّٰهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا ومن شرور شياطين الجن ومن شرور شياطين الإنس يا رب العالمين.

اللّٰهم اجعلنا من خير عبادك الَّذِينَ طالت أعمارهم وحسنت أعمالهم، ونعوذ بك يا ربنا أن نكون من شر عبادك الذين طالت أعمارهم وساءت أعمالهم، اللّٰهم يا ربنا يا حي يا قيوم يا بديع السماوات

والأرض نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثبتنا عَلَىٰ التوحيد والسنة، وأن تُكرمنا بالدعوة إِلَىٰ التوحيد والسنة يا ربنا.

يا ربنا، إنا موقنون أن الموت قريب منا، اللّٰهم فلا تقبضنا إليك إلا وقد رضيت عنا، اللّٰهم لا تقبضنا إليك إلا وقد رضيت عنا، اللّٰهم لا تقبضنا إليك إلا وقد رضيت عنا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النَّار.

واللهُ تَعَالَىٰ أَعَلَىٰ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَسَلَّمْ.